

فلسفة إيليا أبي ماضي في شعره

أمين مقدسي^١، أبوبكر محمودي^٢، علي عبداللهي^٣

١. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران

٢ و ٣. ماجستير في الأدب العربي من جامعة طهران

(تاريخ الاستلام: ٩٠/٣/٢٤؛ تاريخ القبول: ٩٠/٩/١١)

الملخص

يبدو لنا إيليا أبو ماضي في طفلة حياته وشتّى أطوار شعره، رجل التفاؤل والفلسفة والطبيعة في إشراق وانفتاح. وقلماً نجد هذه الميزات عند غيره من شعراء الرومنسية الحديثة. ففكرته الفلسفية تتمحور حول جمال الحياة وامتلاء الطبيعة بعناصر هذا الجمال، وأنّ الماضي قد انتهى، والمستقبل قد غمره الإبهام، فما للإنسان إلّا أن يعيش في واقعية الوجود وأن يملأ ناظره بمحاسنه.

إنّ القارئ يرى في أشعاره غناء الصدق والجمال والدفق بالسّموم الروحي النابض بالشعور والحياة. وأبرز ما يكون في أشعاره هو التأمّل الذي أضفى على قصائده روحاً خفيفاً يجول في ثنايا الكون، ويتوغل في أعماق الإنسان. هذا وإنّ أبي ماضي قد تأثر في أشعاره من أفكار وآراء عديدة كأفكار برغسون الفلسفية وتوماوين الجدد، كما تأثر من عمر الخيام الشاعر والفيلسوف الإيراني الكبير تمام التأثير، وتبلورت هذه التأثيرات في أشعاره وآثاره بشكل مفصلي هامّ.

الكلمات الرئيسية

إيليا أبو ماضي، الفلسفة، التفاؤل، الحياة، التأثر.

مقدمة

إنّ ما تركه إيليا أبو ماضي من قصائد تحمل في طياتها الخصائص الشعرية الكاملة والعناصر الأدبية المرموقة، حيث يقدم الشاعر إلى قرائه ودارسيه ما يحمله من تجربة شعرية صادرة من قرارة القلب وشغاف الفؤاد؛ إذ إنّّه كان شاعراً إنسانياً رحبَ الآفاق، تتمّ أشعاره عن نزعة الإنسانية والدعوة إلى محبة الحياة واستلهاام الطبيعة والفلسفة، والتأمل بأسلوبٍ صافٍ رقيقٍ يحمل أبعد معاني الحياة في أعماقه.

نحنُ في هذا المقال ما أدخرنا جهداً إلّا وبذلناه لتبيين فلسفة أبي ماضي في شعره، حتّى يزيل كل شك وغموض. كما استفرغنا جهودنا للوصول إلى إجابة حول تساؤلاتٍ منها: ما هي فلسفة وفكرة الحياة في شعر إيليا أبي ماضي؟ هل بإمكاننا القول بأن فلسفته هي فلسفة متشائمة قائمة على أساس من الاضطراب وتقلب الأحوال؟ أم يمكننا القول بأنها متفائلة ناظرة إلى المعمورة بعيون الخير والحب؟ وأخيراً هل كان متأثراً بفلسفة ما و...

وجدير بالقول أنّ أبا ماضي لم ينشئ ولم يتبع مدرسة فلسفية معينة، ذات أطرٍ محدّدة تحمل نظرة شاملة إلى الله والكون والوجود، بل كانت له آراءٌ فلسفية تستشف من ذلك ظللاً ومن تلك أخرى. فمن هنا نصرّح بأنّه لم يكن فيلسوفاً من الفلاسفة، بل كان شاعراً بارعاً، بحيث يحمل من الآراء والأفكار المحبّبة والمقبولة الشيء الكثير، وكان ينقلها إلى الآخرين عن طريق الشعر وبيان اختلاجاته.

هذا وقبل أن نتطرّق إلى نصّ المقال لا بدّ أنّ نقف قليلاً عند الشخّصيات والمدارس الفلسفية التي أثّرت على إيليا أبي ماضي، ثم نتحدّث حول تطبيق هذه النظريات في شعر إيليا أبي ماضي ومدى استجلائها فيه.

عمر الخيام

هو عمر الخيام، الفيلسوف والعالم الرياضي، المنجم والشاعر الإيراني الكبير، الذي وُلِدَ في القرن الخامس بنيسابور. إنّهُ خَلَفَ أشعاراً تسمّى بالرباعيات، فضلاً عن أشعاره العربية، إلا أنّ هناك خلافاً في عدد الأبيات المنسوبة إلى هذا الشاعر الجليل.

ما يستقى من رباعياته هو الدّهشة والحيرة أمام لغز الكون وإثارة تساؤلات تفوح منها رائحة الشك والامتراء، والتي تتمثّل في الأسئلة التالية: ما هذا العالم؟ إلى أين سائر؟ وما

الإنسان؟ إلى أين أتى وإلى أين ذاهبٌ أخيراً؟ هل الخالق كان مدبراً حكيماً أم لم يكن الخالق إلا هذه الطبيعة الجامدة؟ ... وبما أنه كان رياضياً، كان يبتغي لكل القضايا دليلاً وبرهاناً، ولكن هذا لم يرثه إلا ذهولاً واستغراباً. فظنَّ أنَّ ما بقي لديه ليس الأسويغات من الزمن، فما عليه إلا أن يستغلها قبل فوات الأوان، فلهذا الشاعر يدعو دائماً إلى عدم إهدار الوقت، والطريق الوحيد لتحقيق هذا المأرب يتجلى في شرب الخمر والثمَّة.

إن هذه الفكرة ليست إلا طريقة للهروب من خيال الموت ومن الأفكار التي لا تؤتي بثمار لصاحبها على الإطلاق. فرباعياته عبارة عن نجوى هادئة من مشاعر رجل كئيب لا يستقر في مكان، وكأنه على بساط من الريح تحركه جنوباً وشمالاً. على كل فان مكانة الشاعر السامية تكمن في شكه وفي علمه بأنه لا يعلم! (للمزيد من المعلومات حول حياة الشاعر وآراءه الفلسفية انظر: دشتي، ١٣٤٤؛ الصراف، ١٩٣١)

ومن اللازم أن لا يفوت من البال بأن خيام نفسه متأثر بفلسفة وآراء أبي العلاء المعري إلى حد ما، ولكننا لا نتناول هذا الموضوع نظراً لضيق المقال. (للمزيد من المعلومات، انظر: مقدسي، ١٣٨٨)

فلسفة برغسون

يعتبر هنري برغسون (١٨٥٩-١٩٤١) أفضل ممثل لفلسفة الحياة الجديدة، حيث قدم فلسفته الجديدة بالنظر إلى حوائج الزمان ومتطلباته بلغة رشيقة أنيقة، بحيث استطاع أن يحصل في سنة ١٩٢٧ على جائزة النوبل الأدبية!

يعتقد برغسون بأن العلوم الطبيعية لا تهتمُّ بالحركات والطَّاقات، ولا تبذل اهتمامها إلا للتأثيرات ومعلولاتها، فبالتالي إنَّ العالم من هذا المنظار يفقد نشاطه وحيويته، فينبغي للإنسان أن يكشف حقيقة أخرى وهي حقيقة باطنية حرَّة، لا تتقيد بمكان ولا بزمان، بل إنها تدوم في الواقعية والطريق الوحيد للمعرفة. هذا الدوام (الديمومة) هو الشهود أو الحدس أو الرؤية الباطنية، وبالتالي تُدرِّك الحقيقة دون وسيط وتُختبر الديمومة بشكل حي.

إنَّ فلسفة برغسون تدعو إلى اعتبار «الإنسان المتأمل» شرطاً أساسياً في اكتشاف كنه الحقائق، وكما أسلفنا إنَّ هذه الفلسفة تعطي أهمية قصوى للحدس في تفكير الإنسان.

وأما على المستوى الأخلاقي، إنَّ برغسون يؤمن بأخلاقين اثنين، الأول: هو أخلاق يتخلَّق به الإنسان بسبب ضغط المجتمع، ويكمن هدفه في حفظ التقاليد والآداب التي يلتزم بها

أفراد المجتمع، فهذا النوع يتبناه فريق خاص أو مجتمع محدد، ولا يترتب عليه فوائد للبشرية جمعاء. الثاني: هو أخلاق يشاهد في كبار الرجال من الأبطال وغيرهم، ولا ينحصر في قوم أو أقوام دون آخرين، بل هو مهمة إنسانية وليس ضغطاً من قبل المجتمع، كما إنّه نداء باطني، يغطّي كافة جوانب حياة الشخص... (للمزيد من المعلومات حول فلسفة برغسون، انظر: بوخنسكي، ١٣٨٦، صص ٨٠-٩٠).

الفلسفة التوماوية

تعتبر الفلسفة التوماوية من أهمّ الحركات الفلسفية المعاصرة في أوروبا التي عملت على تطوير آراء القديس توماس الأكويني، وقد وافقت الكنيسة على فلسفة هذا القديس رسمياً في عام ١٨٧٩، ولذلك الكثرة الكاثرة من أنصارها يعتنقون الكاثوليكية، بيد أنّ هناك عدداً غير قليل من غير الكاثوليكين أصبحوا من أنصار هذه المدرسة الفلسفية.

إنّ التوماوية تقول بمذهب «الفاعل» و«القوة» وهي من الفلسفات التي تعرف باسم «فلسفة الوجود» وتتميز في الوجود بين وجود الفعل ووجود القوة. فعلى سبيل المثال إنّ الطفل الذي كان بإمكانه أن يكون رياضياً (وجود الفعل) فبالقوة هو رياضي. كما أنّ هذه القاعدة أصل في المظاهر الطبيعية الأخرى.

تتخلّص الفكرة الرئيسية عند التوماويين في حقل الفلسفة الطبيعية في المادة والشكل، قائلين: إنّ أدنى مراتب الوجود في العالم هو الجسم الجامد؛ إذ أنّه يعطي فاعليته بواسطة وجود آخر. أمّا الكائنات الحية فتمتاز دائماً بفعاليتها الذاتية بأداء غاية تعرفها وإنّ كان هذا التوجّه في بعض الأحيان غير شعوري، وأمّا الإنسان فهو نشاط دائم وموجود كامل بما تحمل الكلمة من معنى؛ إذ إنّ أفضل من الصور الجامدة والنباتية والحيوانية بكثير. إنّ الإنسان يدرك فاعليته ونشاطه نحو أهدافه المرسومة، كما يمكن أن يختار أهدافه وفعاليتها بحرية كاملة، لا يتمتّع بها أي موجود آخر في عالم الكون، كما يتمتع بها الإنسان.

وأما الله فإنّ الفكر مضطر إلى التسليم بوجوده، وهو موجود بالمعنى «التمثالي»، أي مختلف عن وجود المخلوقات. هذا وإنّ أعلى مستوى في الطبيعة والكون بأجمعها هو الروح، وميزته الرئيسية هي تجرده عن المادة، وله مهمتان:

الأولى: المعرفة وهي على قسمين، المعرفة الحسيّة التي تسمّى بالفهم، والمعرفة الاستدلالية التي تسمّى بالعقل.

الثانية: الطلب وهو ردّ فعل يرتبط بنظام الروح... (للمزيد من المعلومات حول التوماوية، انظر: بوخنسكي، ١٣٨٦، ص ١٨٠ فما بعد).

حياة الشاعر (إيليا أبي ماضي)

هناك اختلاف في السنة التي وُلد فيها الشاعر "إيليا أبو ماضي"، وذهب الدارسون إلى أقوال مختلفة حول تخمين تاريخ مولده، وأغلب الظن أنه وُلد بعام ١٨٨٩م في قرية المحيدثة من قضاء المتن بלבنان (المعوش، ١٩٩٧، ص ٢٨ فما بعد). لم يمرّ من عمره سبع سنوات حتى دخل مدرسة القرية وبدأ بالقراءة فيها، ونال من العلم ما استطاع نيلُه، وفي سنة ١٩٠٢ ترك قريته متوجّهاً إلى الاسكندرية، وحصل من العلم هناك ما استطاع التحصيل، إلى أن جاءت سنة ١٩١١ وهو بمصر، حيث أصدر ديوانه الأول تحت عنوان "تذكار الماضي". في عام ١٩١٢ يمّم الولايات المتحدة، فاستقرّ في مدينة سنسنتي إلى جانب أخيه مراد، وفي سنة ١٩١٦ رحل منها متجهاً إلى نيويورك وإلى حياة الصحافة والأدب، فعهد إليه تحرير "المجلة العربية" ثم "مرآة الغرب". أصدر ديوانه الثاني "ديوان إيليا أبي ماضي" في سنة (١٩١٨)، ثم الجداول (١٩٢٧)، ثم الخمائل (١٩٤٦).

اشترك إيليا أبو ماضي في سنة ١٩٢٠ في تأسيس "الرابطة القلمية" وكان واحداً من شعراءها الأفاضل، إلى أن وافاه الأجل في سنة ١٩٥٧، وهو لا يزال في أوج نشاطه الصحافي والشعري. ولا يعزب عن البال بأن ديوانه الأخير "التبر والتراب" نشر بعد ثلاث سنوات من وفاته (للمزيد من المعلومات حول حياة الشاعر، انظر: ناعوري، ١٩٩٧، ص ١٣ فما بعد؛ المعوش، ١٩٩٧، ص ٢٧ فما بعد؛ الفاخوري، ٢٠٠٣، صص ٥٩٠ و ٥٩١؛ القباني، ١٩٧٤).

فلسفة إيليا

لاشك أن إيليا أبا ماضي كان واسع الثقافة، مرهف الفكر والبصيرة، كان يتمتع بشعور إنساني سامي، وب نظرة إنسانية شاملة، وكان يتوق إلى أن يعيش الإنسانية بأجمعها في رغد من العيش والطمأنينة. إن هذه النظرة التي دان بها إيليا أبو ماضي، كانت نفس الطريقة التي آمن بها كبار الرابطة القلمية، أملين عيشاً كريماً رغيداً لنوع البشر (برهومي، ١٩٩٣، ص ٧٥ فما بعد).

وقد أكثر أبو ماضي من التأمل والتفكير في شعره، وبهذه الظاهرة يمتاز شعره. إذ أن

الشاعر يدعو إلى التفاؤل والاستمتاع بالحياة وبالطبيعة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وعلى حد تعبير شوقي ضيف: «لعله لم يعرف في القرن العشرين شاعر أكثر تفاؤلاً ودعوة إلى الإقبال على الحياة من إيليا أبي ماضي» (ضيف، ١٩٧٩، ص ١٨١).

إن أبا ماضي قد ولع بالفلسفة إلى حد يريد أن يعبر عنها في كل قصيدة، بل في كل بيت يقوله. إنه متفائل ولكن لا يتفائلُ تفاؤلاً الحمقاء والبلهاء ولا تفاؤلاً الذين يمضون دون تفكير في جوانب الحياة المظلمة. إن الإنسان في اعتقاده هو المسؤول عن سعادته وشقائه وهو يسعد نفسه أو يشقيها، فإن كانت نفسه جميلة، يرى الوجود جميلاً وإن كانت نفسه قبيحة، يرى الوجود قبيحاً، وبهذا تكون غاية أبي ماضي استئصال التشاؤم من الكون ونشر الفرح والسعادة اللذين لا يدركان إلا بعد معاناة، وكد ذهنٍ ونفسٍ.

ولعل خير قصيدة تمثل هذه النزعة عنده هي قصيدة "فلسفة الحياة" لأن الشاعر يدعو فيها إلى الفرح والعمل من أجل السعادة. وفيما يلي عدة أبيات من هذه القصيدة الجميلة:

أياها الشاكي وما بك داءٌ	كيف تغدو إذا غدوت عليلاً
إن شرَّ الجناة في الأرض نفس	تتوقى قبل الرحيل الرحيل
فتمتّع بالصبح ما دمت فيه	لا تخف أن يزول حتى يزولا
وإذا وجدت في الأرض ظلاً	فتفياً به إلى أن يحولا

(أبو ماضي، ١٩٨٨، ص ٦٠٤)

ما يستخلص من الأبيات هذه، هو أن الشاعر يدعو الإنسان إلى أن ينظر إلى الكون بعين الجمال والجلال غامضاً المكاره والصعوبات، كما يدعو إلى التمتع بالحياة واغتنام الفرص واستغلالها قبل فوات الأوان؛ لأن الوقت كالسيف، إن لم تقطعه سيقطعك عاجلاً. نرى في القصيدة أن الشاعر يوبخ الذين يشكون من هذه الحياة الجميلة ولا يرون جمالها، واعظاً إياهم بأسلوب حكيم، عارضاً شقاء الحياة ومسررتها... فالفرح لا يمكن أن يوجد بعيداً عن الألم والشوك. إن هذه السمات والميزات قريبة جداً إلى الفلسفة الخيامية (المعوش، ١٩٩٧، ص ١٩١ فما بعد)، التي تدعو إلى اغتنام الفرص وعدم تلهية النفس بالظنون الباطلة لان الظن لا يغني شيئاً. يقول خيام:

لا تشغل النفس بخوف الظنون	واغنم من الحاضر أمن اليقين
---------------------------	----------------------------

(الخيام، د.ت، ص ٤٧)

ويقول:

از دی که گذشت هیچ از او یاد مکن فردا که نیامده است فریاد مکن
بر نامده و گذشته بنیاد مکن حالی خوش باش و عمر بر باد مکن

(دشتی، ۱۳۴۴، ص ۱۲۲)

يعني: لا تتذكر ما فاتك من الأيام الماضية، ولا تكن قلقاً بالنسبة للغد المغمور بالإبهام، ولا تكثر بالماضي والمستقبل، فما عليك إلا أن تلتذ الآن من حياتك وألا تهدر عمرك. المتبّع لديوان إيليا أبي ماضي يجد تأثره الوافر بعمر الخيام، خاصة في قصيدته الطويلة الشهيرة "الطلاسم"، بحيث يقول فيها:

ولقد ابصرت قصرًا شاهقاً عالي القباب قلت ما شادك من شادك إلا للخراب
أنت جزء منه لكن لست تدري كيف غاب وهو لا يعلم ما تحوي، أيدري؟ لست أدري!

(أبو ماضي، ۱۹۸۸، ص ۲۰۲)

إن هذا الأبيات قريبة جداً، فكريباً ومعنوباً، إلى هذه الرباعية لخيام:

آن قصر که بر چرخ همی زد پهلو بر درگه او شهان نهادندی رو
دیدیم که بر گنگره اش فاخته ای بنشسته همی گفت که کوکو، کوکو؟

(دشتی، ۱۳۴۴، ص ۲۲۰)

يعني: أمام هذا القصر الشاهق المرفوع قد دفن كثير من الملوك والكبراء وعلى شرفته رأينا حمامة (وقواقا) يتغنى كوكو، كوكو! وهذا المصطلح الأخير يعني أين القصر وإلي أين ذهب قاطنوه؟

يرى البعض أن أبا ماضي قد استبشر أمام الناس، ولكن كان كئيباً حزيناً في قرارة نفسه، يظهر للملأ خلاف ما يبطن من غمٍّ وهمٍّ وهذا ينبع من كرم نفسه وعلوه في الأخلاق. وإذا كانت هذه النفسية لأبي ماضي، فذلك لا يمنع من أن يأخذ من الفلسفة أطرافاً مختلفة وربما متناقضة (سراج، ۱۹۷۵، ص ۲۳۶). فبينما نراه يدعو إلى التفاؤل في قصيدة "فلسفة الحياة" نجده يصل إلى عكس ذلك في قصيدة "شاعر والملك الجائر" التي يبدأ مطلعها بهذا البيت:

أمر السلطان بالشاعر يوماً فاتاه في كساءٍ حائل الصبغة واهٍ جانباه...

(أبو ماضي، ۱۹۸۸، ص ۷۷۰)

إنّ الشاعر في القصيدة يتطرق إلى عدّة موضوعات، خاصة إلى عجز الإنسان وضعفه أمام الكون الواسع الرحيب وعدم تخطي الأطر المحددة له.

ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ عدد الأبيات التي غلب عليها التشاوم قليل جداً بالنسبة إلى التي تدعو إلى التفاؤل والجمال، أو بعبارة أدق، إنّ أبياتاً كهذه قد تخطر على بال الشاعر خطراً وتمحو على أثرها محوياً.

هذا وإنّ أبا ماضي في عدد من قصائده يمثل لنا نزعةً صوفيةً مثلها كثير من شعراء المهجر وأدبائه. والنزعة هذه تتجسّد أوضح التجسيد في قصيدته الشهيرة "الناسكة" التي يقول فيها:

أبصرت في الحقل قبيل المغيب سنبله في سفح ذاك الكثيب
حانية مطرقة الرأس كأنّما تسجد للشمس

وإنّها تتلو صلوة المساء

قد غابت الشمس وراء القمم وسكت الطير الذي لم ينم
لكن ناري لم تزل تززع ولم أزل أكل ما تنضج

يا حبذا النّار ونعم الشواء

(أبو ماضي، ١٩٨٨، ص ١٧٦)

إنّ القارئ في هذه الأبيات يرى جواً روحانياً يضيفه الشاعر إلى السنبله، وإنّ كل شيء أمام الشاعر صار رمزاً معنوياً من حكمة الله وقدرته، كأنّما السنبله حنت رأسها للشمس، وكأنّها تقوم بصلاة المساء، وهاهو الكشف الروحي الذي يخطر على بال الشاعر في البحث عن كنه الأشياء والوصول إلى حقائقها، وهذا من نوع الكشف الروحي الذي عرف عند الصوفية. إنّ المتتبع لفلسفة إيليا أبي ماضي في ديوانه قد يصل إلى جوانب مختلفة وربما متناقضة، لذلك فهو حيناً متصوّف، كما أشرنا في قصيدة الناسكة وأحياناً يدعو إلى الاستمتاع من ملذّات الحياة، كما أسلفنا في قصيدة "فلسفة الحياة" التي يدعو فيها إلى استغلال الفرص واغتنامها تلبيةً لحوائج الإنسان.

وقد تأثر أبو ماضي بفلسفة برغسون القائلة بأهمية الحدس في تفكير الإنسان وفي تأملاته بشكل عام. إذ إنّ النفس المتأمّلة والمتفكرة في وجهة نظر الشاعر هي أساس كل

شيء، فلذلك استطاع الشاعر تحقيق الفلسفة البرغسونية، ما فحواها تحول الإنسان إلى متأمل، حيث يستطيع نتيجة لذلك أن يعلم ماهية الأشياء بواسطة حدسه، فإذا كانت الفكرة بالنسبة إلى الأمور إيجابية فسيكون المصير إيجابياً، يقول الشاعر في فلسفة الحياة:

وترى الشوك في الورود وتعمى
والذي نفسه بغير جمال
أن ترى فوقها الندى إكليلا
لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً
أيها الشاكي وما بك داء
كن جميلاً تر الوجود جميلاً

(أبو ماضي، ١٩٨٨، ص ٦٠٤)

لم يكن أبو ماضي يحسب الحياة سعادةً مطلقة، بل يرى بجانبها المصاعب والشقاء قد خيمت أمامها، ولكن الأفضل للإنسان أن يتجاوزها وصولاً إلى أهدافه المبتغاة. كما إنّه من اللازم أن يعترف بوجود الألم إلى جانب الفرح وأن يتخطى الترح للحصول على الفرح، ويعتبر الأول شيئاً عارضاً لا بد منه، يقول الشاعر:

إذا ما أظلل رأسك هم
ليس أشقى ممن يرى العيش مُراً
قصّر البحث كيلا يطولاً
ويظن اللذات فيه فضولاً

(أبو ماضي، ١٩٨٨، ص ٦٠٥)

هذا وإنّ أبا ماضي قد تأثر بالفلسفة التوماوية، واتخذ من بعض مظاهر الطبيعة دليلاً على ما ذهب إليه من الفكرة، قائلًا: إنّ الطيور والعصافير تعرف سرّ الكون وحقيقته، إذ أنّها تغرد وتغني ولا تملك حبة خردل من هذا الكون الرحيب الواسع، فضلاً عن هذا فإنّ خطر الصيادين في الأرض والصقور في السماء تهددها... ومع كل هذا نراها تلتذّ بالحياة، وها هو سرّ دعوة الشاعر من الإنسان أن يكون شبيهاً بالأطيار، يقول:

أدركت كنهها طيور الروابي
ما تراها والحقل ملك سواها
فمن العار أن تظلّ جهولاً
تخذت فيه مسرّحاً ومقيلاً
تتغني والصقر قد ملك الجو
تتغني وقد رأت بعضها يو
يا ر عند الهجير ظللاً ظليلاً
فاطلب اللهو مثلما تطلب الأط

(م.ن)

والحديث عن الطيور والدعوة إلى تمثّل الإنسان بها يجد أساسه في فلسفة التوماويين، وكما أسلفنا، إنّ هذه الفلسفة تذهب إلى أنّ الكائنات الحية تعرف غايتها وهدفها وإنّما

تتَّجّه فعاليتها صوب هذه الغاية في بعض الأحيان، على نحو غير شعوري.

فإذا كان هذا حال الكائنات الحية، بأنّ تعرف كلها غايتها لا عقلانياً ولا ميكانيكاً، بل بغريزة مكنونة لديها، فكيف الحال بالنسبة إلى الإنسان ولديه الحدس والشهود والعقل. فعلى الإنسان أن يتخطّى كل العوائق التي تعيقه حتى يكون صانعاً لحياته:

ليست حياتك غير ما صورتها أنت الحياة بصمتها ومقالها

(م.ن، ص ٥٤٨)

ولكن يجب ألا يعزب عن البال، أن الإنسان لا يقدر أن يتشَبَّه بكل مبتغياته، ولا يستطيع الوصول إلى كلها، كما هو الأمر في المظاهر الأخرى للطبيعة. يقول أبو ماضي عن الأطيّار والحيوانات و...:

فغبطتها في أمنها وسلاحها ووددت لو أعطيت راحة بالها

(م.ن)

فغبطة هذه الطيور هي في أمنها، وإلّا يحفّ الخطر والصيادون بها، ولكن هل هذه الغبطة تتحقق دائماً في أرض الواقع؟ بالطبع لا! يقول أبو ماضي:

تتغنّى وقد رأت بعضها يوخذ حياً والبعض يقضى قتيلاً

(م.ن، ص ٦٠٤)

إنّ الشاعر في قصيدة المساء يعيد أفكاره ذاتها حول فلسفة التوماويين، داعياً إلى تناول الحياة على أنّها هدف مفرح يؤدي إلى الغبطة، كما أنه يعمّ دعوة الفرح والاستبشار على هذه القصيدة تعميماً، ويطلب من الإنسان - وهو شيخ - أن يكون صيباً يافعاً، منادياً أنّ النفس تبقى شابةً وفتيةً طوال العمر، إذا ما نظرت إلى الحياة نظرة تفاؤل واستبصار:

لتكن حياتك كلها أملاً جميلاً طيباً

ولتملا الأحلام نفسك في الكهولة والصبا...

ليكن بأمر الحب قلبك عالماً في ذاته

أزهاره لا تذبل

ونجومه لا تأفل... (م.ن، ص ٧٦٥)

كما هو معلوم أنّ غلاف القصيدة رومانسي، فالحلب والحلم والجمال كلها من مقولات الرومانسية المتفائلة بغد أفضل، وهذا وجه واحد من العملة، ووجهها الآخر هو قضبان الألم

والكآبة والأسى، ومادام الأمر كذلك فليخفف الإنسان من استعمال التفكير والإطراق الدائم المضي إلى الكآبة:

مات النهار ابن الصباح فلا تقولي كيف مات
 إن التامل في الحياة يزيد آلام الحياة
 فدعي الكآبة والاسي واسترجعي مرح الحياة
 قد كان وجهك في الضحي مثل الضحي مهلاً
 فيه البشاشه والبهاء
 لكن كذلك في المساء (م.ن، ص ٧٦٥)

هذا وإن القارئ يستطيع أن يجد في معظم قصائد أبي ماضي هذه الأفكار الفلسفية، مبنوثة هنا أو هناك، وبأشكال مختلفة في ديوانه مثل قصائد "الفيلسوف المجنح" و"بردي يا سحب" و"كم تشتكي" و"العنقاء" و... (المعوش، ١٩٩٧، ص ٢٠٠ فما بعد).

ولا ريب في أن أبا ماضي في نزوعه الفلسفي التأملي يكرّر فكرته في أماكن كثيرة، وبوجه أخص في تلك الداعية إلى التفاؤل. إن قصائد أبي ماضي نابعة من صميم قلبه، تفيض الكثرة الكاثرة منها بالحياة والأمل والرجاء، وعلى حد تعبير برهومي خليل «يشعر كل قارئ لها أو مستمع إليها أنها تعبر عن إرادته أو أنها تتحدث بالنيابة عنه، فهي تخاطبه روحاً وعقلاً وشعوراً. بالرغم من أن أبا ماضي لم ينل ثقافة أكاديمية منهجية، إلّا أنه استطاع بتقافته الذاتية ورقة إحساسه أن يؤثر في قرائه، ويستحوذ على مشاعرهم وعواطفهم» (م.ن، ص ٥٦).

النتيجة

لاشك أن إيليا أبا ماضي من الشعراء القلائل الذين قد أسهموا في إخضاع الشعر العربي للأغراض والأهداف الإنسانية. إن شعره مصبوغ بالصبغة الفلسفية، فهو يحب الكون ويتوق إلى حياة رغدة للإحياء فيه، ويستهدف سعادة المجتمع ويدعو إلى تنقية الحياة من الأشواك والأردان. إنه أكثر من التأمل في شعره وهو مولع بالفلسفة، يريد أن يجسدها في كل قصائده بل في كل بيت من أبياته، وبهذه الفلسفة التأملية التفاؤلية، يكون أبو ماضي من الرواد الذين فتحوا صدر الشعر لغير الغنائية الذاتية. إن أبا ماضي قد استشف في فلسفته وتأملاته ظلالاً من الفلسفة البرغسونية والتوماويين الجدد فضلاً عن تأثره الملحوظ بعمر الخيام.

المصادر والمراجع

- ١ . أبو ماضي، إيليا (١٩٨٨). ديوان إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر. بيروت: دار العودة.
- ٢ . برهومي، خليل (١٩٩٣). إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ٣ . بوخنسكي، يوسف (١٣٨٦ش). فلسفه معاصر اروپايي. ترجمه شرف الدين خراساني، ط٣، طهران: انتشارات علمي فرهنگي.
- ٤ . حسين، طه (١٩٣٥). حديث الأربعاء. القاهرة: دار المعارف.
- ٥ . الخيام عمر (دون تا). رباعيات الخيام. ترجمة أحمد رامي. القاهرة: [دون نا].
- ٦ . دشتي، علي (١٣٤٤ش). دمي با خيام. طهران: مؤسسه چاپ و انتشارات اميركبير.
- ٧ . ديمتري، سليم جورج (دون تا). إيليا أبو ماضي: دراسات عنه وعن أشعاره المجهولة. مصر: دار المعارف.
- ٨ . سراج، نادرة (١٩٧٥). دراسات في الشعر المهجر: شعراء الرابطة القلمية. القاهرة: دار المعارف.
- ٩ . الصراف، أحمد حامد (١٩٣١). عمر الخيام. بغداد: طبعة بغداد.
- ١٠ . ضيف، شوقي (١٩٧٩). دراسات في الشعر العربي المعاصر. ط٦، القاهرة: دار المعارف.
- ١١ . الفاخوري، حنا (٢٠٠٣). الجامع في الأدب العربي الحديث. ط٨، قم: منشورات ذوي القربى.
- ١٢ . القباني، عبدالحميد (١٩٧٤). إيليا أبو ماضي، حياته وشعره بالإسكندرية. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.
- ١٣ . المعوش، سالم (١٩٩٧). إيليا أبو ماضي بين الشرق والغرب في رحلة التشرد والفلسفة والشاعرية. بيروت: مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع.
- ١٤ . مقدسي، أبو الحسن أمين (١٣٨٨ش). ادبيات تطبيقي. طهران، نشر جامعة طهران.
- ١٥ . ناعوري، عيسي (١٩٩٧). إيليا أبو ماضي والشعر العربي الحديث. ط٢، بيروت: منشورات عويدات.